

ملحمة الراعي النميري

قصيدة الرفض والاحتجاج

(جمهرة أشعار العرب، تحقيق محمد الحاشمي، ج ٢، ص ٩٢١ - ٩٣٨)

• د. محمد سر صالح •

١. ما بال دلفك بالفراش عذيباً ؟
 ٢. لما رأيت أرقى، وطول تلذذي
 ٣. قالت حليلة ما عراك ؟ ولم تكن
 ٤. أحليداً، إن أباك صاف وساده
 ٥. طرفاً، فلك همومي، أفرجها
 ٦. شم الخوارك جثعاً أعضادها
 ٧. حوزة طويت على زفراتها
 ٨. بيت مرافقهن فوق مزلة
 ٩. كانت هجان مندر وعمرق
 ١٠. فكان رقصها إذا ياسرها
 ١١. وكأنما انتطحت على أثابجها
 ١٢. قذف العدو إذا غدون حاجة
 ١٣. قود تذراع غول كل صوفة
 ١٤. في مهمه قلقك به هاماتها
 ١٥. وإذا تعارضت المفازة عارضت
- أقلدى بعينك، أم أردت رحيلاً ؟
ذات العشاء، وليل الموصول
يوماً، إذا عرت الشؤون سؤولا
همان، بالاجتنبه ودخلا
قلصاً، لواقع كالقسي وحولا
صهاً، شاسب شدقما وجدبلا
حتى القناطر، قد بولن بسؤولا
لا يطلع بها القراذ مقبلا
أماهن وطرفهن فحربلا
كانت معاودة الرحيل ذلولا
فلذر بشابة قد غمن وعولا
دلف الرواح إذا أردن قفولا
ذرع الموضع مبرماً وسحبلا
قلق القوروس إذا أرذن لصولا
زبدا يعلل خلقها تبعلا

١٦. رجل الخداء كأن في حيزومه
 ١٧. وإذا ترخلت الضحى قذفت به
 ١٨. يتبعن ماثرة اليمين شملة
 ١٩. جاءت بذي رمق لينة أشهر
 ٢٠. لا يتخذن إذا علون مفازة
 ٢١. حتى وردن ثم يحمر بالنصا
 ٢٢. سُدما إذا أمس الذلاء نطافه
 ٢٣. جمعوا قوى مما تضم رجالهم
 ٢٤. حتى إذا برد السجال لهاها
 ٢٥. وألطن بعد كظومهن بجمرة
 ٢٦. جلسوا على أكوارها فترادفت
 ٢٧. ملى الحصى باث توجس فوقه
 ٢٨. حتى إذا انجاب الدجى، وتلفتت
 ٢٩. حذب السراق، وألقت أعجازها
 ٣٠. وجرى على حذب الصوى فطردنه
 ٣١. أبلغ أمير المؤمنين رسالة
 ٣٢. من نازح، كثرت إليك همومه
 ٣٣. طال القلب، والزمان ورايه
 ٣٤. ضاف الغموم وساده وتجبنت
 ٣٥. فطوى (البلاد) على قضاء صريمة
 ٣٦. وعلا المشيب لدائه، وعلت له
 ٣٧. فكان أعظمه محاجن نعمة
 ٣٨. كحديدة الهندى أمسى جفسه
 ٣٩. تعلق حديدته، وتكر لونه
 ٤٠. إلي حلفت على يمين برة
 ٤١. ما زرت آل أبي حبيب طائعا

قصبا، ومقنعة الحين، عجولا
 فتأون غايته، فظل ذميلا
 ألقت بمخرق الرياح سبيلا
 قد مات أو حب الحياة قليلا
 إلا يباض الفرقدين دليلا
 جُدا تقارضه السقاء ويلا
 صادق مشرفة الشباب دحولا
 شئ التجار ترى بين وصولا
 وجعلن خلف غروحيهن ثميلا
 من ذي الأبارق أروعن حقلا
 صعب الصدى، جرع الرعان رجلا
 لسط القطا بالجلهين نزولا
 ورأت أوابد، يرتعين هجولا
 روح، يكون وقوعها تحليلا
 طرد الوسيقة بالسماوة طولا
 تشكو إليك مظالما وعويلا
 لو يستطيع إلى اللقاء سبيلا
 كئل ويكره أن يكون كولا
 ربان يصبح في الملام ثقولا
 بالجد والتخذ الزماغ خليلا
 جقب، نقضن مريمه المفسولا
 عوج قذمن فقل أرذن لحولا
 خلقا، ولم يك في العظام نكولا
 عين رائه في الشباب صقلا
 لا أكذب اليوم الخليفة قولا
 يوما أريد ليحيي تديلا

٤٢. ولما أتيت نجدة بن عويمر
 ٤٣. من نعمة الرحمن لا من حليسي
 ٤٤. وشئت كل منافق متقلب
 ٤٥. واهي الأمانة، لا تزال قلوبه
 ٤٦. إذ كلهم أمسى بم بيعه
 ٤٧. أخليفة الرحمن إذا معشر
 ٤٨. عرب نرى لله في أموالنا
 ٤٩. إن السعة عصوك يوم أمرتهم
 ٥٠. كتبوا الذهب من العداء لسرف
 ٥١. دخر الخليفة لو أحطت بعلمه
 ٥٢. أخذوا العريف، فقطعوا حيزومه
 ٥٣. حتى إذا لم يتركوا لعظامه
 ٥٤. جاءوا بصكهم وأحذب أسارت
 ٥٥. نسي الأمانة من مخالفة لفتح
 ٥٦. أخذوا حوله فأصبح قاعداً
 ٥٧. يدعو أمير المؤمنين ودونه
 ٥٨. كهدهد كسر الرماة جناحه
 ٥٩. وقع الزبيع وقد تقارب خطوه
 ٦٠. متوشح الأقارب، فيه نهمة
 ٦١. كدخان مرتجل بأعلى تلعة
 ٦٢. أخليفة الرحمن إن عشتري
 ٦٣. قوم على الإسلام لما يتركوا
 ٦٤. قطعوا الجماعة يطرئون كألهم
 ٦٥. يحدون خدياً مائلاً أشرافها
 ٦٦. حتى إذا خبث ثقتى جرفها
 ٦٧. شهري ربيع مالدوق لبوسهم

أبغى الهدى فيزيدني تنديلا
 إلى أعد له علي فضولا
 ترك الزلازل قلبه مدخولا
 بين الخوارج هزة وذملا
 مع الأكف تعاوّر البنديلا
 خفاء، نجد بكره وأصيلا
 حق الزكاة منزلاً تنزيلا
 وأتوا دواهي لو علمت وغولا
 عاد، يريد خيانة وغلولا
 لترك منه طائفاً مفصولا
 بالأصحية قائماً مغلولاً
 لحماً ولا لقواده معقولاً
 منه السياط يراعة إجلالاً
 شمس تركن بضيئة مجزولا
 لا يستطيع عن الذبار حويلاً
 عبت تجر به الرياح ذبولاً
 يدعو بقارعة الطريق هديلاً
 ورأى بعقوته أجل نسولاً
 نهش الدين نخاله مشكولاً
 غرثان ضرّم عرفجاً ملسولاً
 أمسى سوائهم عزين فلولاً
 ماعونتهم ويضعوا التهليلاً
 قوم أصابوا ظالمين قبيلاً
 في كل مقربة يدعن رعيلاً
 وشى الرعاة شكرها الشجولاً
 إلا حموضاً وخمة، وذويللاً

عقدأ يراه المسلمون قلبا
بعد البنى وفقرهم مهزولا
أليك، أم يتلون قلبا
وإذا أردت لظالم تكيلا
عنا وانقذ شلونا الماكولا
من رثا قتلا ومنك جزىلا
ثم يلقوا بما أردت فيلا
منا وتكتب للأمير أفيلا
تدغ الفرائض بالشريف قلبا
وبلت ضغائن بينها وذحولا
ومن الزلازل في القلال نجولا
ضرباً ترى منه الجميع شكولا
ودعا فلم أر مظه مخذولا
شققا وأصبح سيفهم مملولا
عمياء كان كائها مفعولا
من لم يكن غمراً ولا مجهولا
حدب الأمور، وخبرها مسؤولا
ولقد يرى زرعاً بها ونجولا
ومشيداً فيه الحمام ظليلا
لزم الرحالة أن قيل ميملا

٦٨. وأناهم يحيى فشد عليهم
٦٩. كئباً تركن غيهم ذاعلة
٧٠. فتركت قومي يسمون أموزهم
٧١. أنت الخليفة، عدله ونواله
٧٢. فارفع مظالم عيالت أبنائنا
٧٣. فرى عطية ذاك إن أعطيه
٧٤. إن الذين أمرتهم أن يعدلوا
٧٥. أخذوا الكرام من العشار ظلامه
٧٦. فلن سلحت لأدعون بظفة
٧٧. وإذا قريش أوقدت نيرانها
٧٨. فأبوك سيدها وأنت أشدها
٧٩. وأبوك ضارب بالمدينة وحده
٨٠. قتلوا ابن عثان الإمام تعديا
٨١. فصذعت من يوم ذاك عصاهم
٨٢. حتى إذا نزلت عجاجة فقة
٨٣. ورثت أمية أمرها، فدغت له
٨٤. مروان أحزمها إذا حلت به
٨٥. أيام رفع بالمدينة ذيلة
٨٦. وديار ملك غربتها فقة
٨٧. آهات قومي والجماعة كالذي



إن أول ما يواجهه الدارس المتق للحملة الراعي الفجري، مدى صحة تصنيف القدماء والمحدثين للقصيدة على أنها في مدح عبد الملك بن مروان، والشكوى من السعاة والعاملين^(١). أما أنها في الشكوى من السعاة والعاملين؛ فهذا صحيح، وتفصح عنه القصيدة بوضوح وبصرامة في كثير من آياتها، وأما أن تكون القصيدة في مدح عبد الملك

ابن مروان؛ فهذا ما لا يخرج به المصنف فيها، فالقصيدة لا يوجد فيها بيت واحد في مدحه، ذلك المدح الذي ألف الخلفاء سماعه من الشعراء، وأبيات المدح القليلة التي وجدت في القصيدة، هي في مدح مروان، ولعل هذا هو الذي أدى بالعلماء كي يصفوها هذا التصنيف، وحتى في هذا المدح القليل؛ لم يكن الشاعر يمدح «مروان» أو «عبد الملك ابنه»، وإنما كان يعنى منه شيئاً واحداً، هو حث عبد الملك كي يكون حازماً قوياً، مثلما كان أبوه قوياً حازماً في أيام الفتة. إن الشاعر يريد أن يشير إلى أن عهد عبد الملك، يشهد فتة لا تقل عن الفتة التي شهدها عهد مروان، وكيف أنه استطاع بقوته وحزمه أن يحمدها. يقول الراعي عن مروان :

مروان أحزمها إذا حلت به حذب الأمور وخيرها مـؤولا
وبخاطب عبد الملك قائلاً :

أنت الخليفة عدله وتواله وإذا أردت لظالم تنكـيلا
فارفع مظالم عثت أبناءنا عثا وأتقذ شلونا المأكـولا
فالقصيدة في مجملها شكوى وصراخ^(٦).

وليس هذا فقط، إن الراعي هدد وتوعد بالخروج والتمرد عندما قال :

فلئن سلمت لادعون بظنـة تدع القرائض بالشريف قليلا ؟؟؟
وتقول الأخبار : إن عبد الملك قال للراعي بعد أن سمع هذا البيت : فأين أنت من الله والسلطان لا أم لك ؟ فأجابه الراعي يا أمير المؤمنين : من عامل إلى عامل، ومصديق إلى مصديق.

لقد كان عبد الملك أكثر فهماً للقصيدة من بعض الناس. ذلك أنه قال للراعي بعد سنة عندما قدم إليه مادحاً : أنت العام أعقل منك عام أول^(٧).

يقول الراعي من القصيدة الثانية هذه مادحاً عبد الملك بن مروان :

أنت الحيا وغيث نسطيت به^(٨) لو نستطيع فذلك المال والولد
بل إن الراعي يرجو عبد الملك رجاءً إذ يقول :

نرجو سجالاً من المعروف تنفعها لائلـك فلا من ولا غـمد

إن فطنة عبد الملك؛ جعلته لا يحس إحساس المدح بل إحساس التهم من خلال عماله المقصرين. هذا فيما يتعلق بعبد الملك. أما فيما يتعلق بالشاعر، فالواضح أن القصيدة لا تكشف أن الباعث الحقيقي كان مدحاً، بل كان الباعث احتجاجاً ورفضاً للسياسة الاقتصادية، إذ أن بداية القصيدة تكشف عن هو مطبق ألم بالشاعر، وليس ذلك ما يحس به الشاعر المادح عادة. ثم إن الراعي يقول: «قلن سلمت....» وليس هذا ما عودنا سماعه الشعراء المداحون: إن الشاعر كان يخشى غضب الخليفة ويطشه، ولم يكن يأمل العطايا والمهبات كما هو الشأن مع الشعراء والمداحين.

وليس صحيحاً ما ذكرته الدكتورة عزيزة فوال نقلا عن خزائن الأدب أنه قال: «من لم يرو قصيدتي في مدح عبد الملك بن مروان التي أشكو فيها من السعادة..... من ولدي فقد عني»^(٥). والرواية كما جاءت على وجه الدقة هي: «... وهي قصيدة جيدة كأن يقول: من لم يرو لي من أولادي هذه القصيدة وقصيدتي التي أولها بأن الأحية - وهي في هذا المعنى أيضاً - فقد عني»^(٦) فلم يذكر كما جاء في الرواية أنه مدح عبد الملك بن مروان البتة.

إن الرفض والاحتجاج، هما الطابع العام لهذه القصيدة، فكل جانب من جوانبها يشير إلى ذلك، وليس بعيداً أن يكون حرف الروي لهذه القصيدة يشير إلى ما ذكرناه، فقد جاء روي القصيدة «لا» وهو حرف له دلالة الكبيرة فكأن الراعي يقول في قصيدته «لا» عدد أبيات القصيدة بشكل واضح بارز.

إن المفهوم الذي انتهت إليه النظرة المتعمقة للقصيدة، يقود إلى أن القصيدة تطرح موضوعاً واحداً، وتثير قضية واحدة أحس بها الشاعر، وعثر عنها، هي الشكوى والاحتجاج، غير أن الشاعر قد نهج نهجاً جديداً في قصيدته هذه. وهي خاصية امتاز بها الراعي وذكرها له ابن سلام في طبقاته حيث يقول عن الراعي: «وكان يقال له في شعره: «كأنه يحسب الفلاة غير دليل، أي أنه لا يحدى شعر شاعر ولا يعارضه»^(٧). لقد طرح الشاعر قضية طرحاً عميقاً على شكل لوحات فنية مختلفة من خلال عوالم تقليدية، وبخاصة رحلة الإبل واستخدام الشاعر لتشكيل لوحاته ألفاظاً صعبة موحية معقدة تناسب مع موضوع الإبل وعالم الرعاة، وليس هذا بغريب على شاعر لقب بالراعي لكثرة ما وصف الإبل ورعايتها.

ومثال ذلك:

قلص، لواقح، الحوارك، حوزة، بزلن، مزلة، ربيض، ألباجها، دلف الزواح، تنوفة، ربدأ،

ذمياً، مائة وهكذا، وهذا هو المستوى الأول.

أما المستوى الثاني فجاء بمتى الوضوح واليسر، إذ عرض الشاعر موضوعه بوضوح تام لا يستعصي فهمه على أحد، لا على أفراد قبيلته، ولا على العمال الذين شكاهم، ولا على الخليفة، حتى ولا على ابنته التي خاطبها في بداية القصيدة، واستخدم ألفاظاً سهلة واضحة، وبخس الفاريء بسهولة اختلافاً ما بين المستويين، الأمر الذي قد يدفع بعض القارئ لقصيدة الراعي إلى أن ينتهوا إلى أن القصيدة ذات موضوعين : الأول : الإبل والرحلة، والثاني : الشكوى والاحتجاج، وما يتصل بالموضوعين من تصوير للهم والأرق وعريف القبيلة أو الحديث عن مروان بن محمد، وهذا ما أشار إليه أبو زيد القرشي عندما سَمَّى هذه القصيدة «ملحمة» أي القصيدة التي تتلاحم أجزاءها بعضها ببعض، ومن هنا أقول : إن القصيدة ذات موضوع واحد، وما الأجزاء التي جاءت في القصيدة إلا أبعاد أو صور أو لوحات تشد وتجمع لتشكّل الموضوع الأساس، والشاعر كذلك مستوي تعبير كما ذكرت لقد طرح الشاعر موضوعه. في المستوى الأول برمسة الفنان، الشاعر المخلق فجاءت بهذه الصورة. أما في المستوى الثاني : فكان يعبر عن فضيته بقلم الغامي^(٨) بل إنه استخدم أساليب المحامين وطرائقهم، من حيث عرض القضية والاحتجاج لها ودفع الاتهام، والتماس إحقاق الحق وغير ذلك.

وكان على الراعي - كي يُفنع أكثر - أن يستخدم ألفاظاً واضحة صريحة مثل : رسالة، عويلاً، مظالماً، التقلب، النام، كسولاً، خلقت، يمين، أكذب، طائعاً، عرب، أموالنا، الزكاة، تنزيلاً، الرحمن، منافق، وهكذا.

ولذلك فإنّ المستوى الثاني بوضوحه وسهولة فهمه، يعبر عن فهم المستوى الأول، وهذا ما يدعو إلى القول بأنّ القصيدة تتأثر بوحدة موضوعية وعضوية، فهي وحدة واحدة من المشاعر والأحاسيس متلاحمة الأجزاء كما عبر عن ذلك القرشي أبو زيد.

إن المدخل لفهم قصيدة الراعي بمستوياتها، يتمثل في متعادلين مترابطين، الأول : التآزم الذي عاشه الراعي الشاعر، أو الانغلاق، وهو هنا الأرق، الهم، الاضطراب، الخوف. والثاني : التوازن أو الانعناق وهو هنا، الوضوح، الصراحة، الشكوى والاحتجاج، طلب رفع الظلم ومعاقبة الظالمين وهذان البعدان - التآزم - والتوازن - لا تستغني عنهما عملية شعرية ناجحة.

بدأ الشاعر قصيدته ببداية ألفناها عند غيره من الشعراء، تتمثل تساؤل من أحد الناس عن قلق الشاعر وأرقه، غير أن الراعي كان متفرداً في هذه البداية. فهو لم يصرح عن التساؤل إلا في ثالث بيت، ومعنى هذا وضع السامع أو القارئ في جو مغلق متأزم، وفي البيت الثاني يعرف القارئ أن التساؤل كان المرأة، ولم تكن هذه المرأة حبيبة أو زوجاً كما اعتاد الشعراء كأبي ذؤيب مثلاً، ولكنها كانت عند الراعي ابنته، وهي عنصر أقل إدراكاً لموم الوالد من الأم قلقها تحسُّ بما يعانيه أبوها. وقد يكون حضور شخص الابنة في قصيدة الراعي راجعاً أيضاً إلى أن الراعي وهو المصمم على عرض شكواه، لم يمنعه حبه المكين لابنته، وشدة تعلقها به، من تنفيذ فكرته والسفر إلى الخليفة كي يسمعه شكواه. يقول:

ما بال دُفك بالقراش مديلاً أقدى بعينك أم أردت رحيلاً
لا رأت أرقى وطول تلدددي ذات العشاءِ وليلي الموصولاً
قالت خليدة ما عراك ؟ ولم تكن يوماً إذا عرت الشؤون سؤولاً

ولعل مما يؤكد هذا الفهم؛ أن الراعي أتى بصورة خليدة وموقفها هذا في قصيدة أخرى ولكن بصورة أوضح عندما شكا السعاة أيضاً حيث يقول^(٩):

قامت خليدة تنهاني فقلت لها إن الناي لمقيات له عدد

أما إجابة الراعي على تساؤل ابنته فجاءت عامة غير محددة أو واضحة في البيت الرابع - وعدم التحديد ينسجم مع روح التأزم أو الانغلاق.

يقول الراعي:

أخيلد إن أبالك خاف وساده همنان بالنا جبة ودخيل

ولكنه لم يبين طبيعة هذين الهمين أو ما هما، لكنه وصفهما لتضخيم أثرهما عليه. إن الاستعارة المكنية ليست كل ما في البيت السابق، وإنما حملت كل لفظة فيه شيئاً، مما كان يدور في خلده الراعي، إن الضيافة المقصودة عند العرب لم تكن إلا للسيد المأمول. ثم إن ضيافة الليل تشير إلى خطورة الأمر وأهميته، فما بالك إذا داهم الضيف مخدع المضيف، ولم يكن ضيفاً بل ضيفين أي همين ملكا عليه نفسه وأرقاه. وبالرغم من محاولات كشف الانغلاق من خلال هذا التحليل ما زال السؤال قائماً، ما هما هذان الهمنان ؟ وهنا يأتي دور المستوى الثاني في التعبير الواضح الصريح، لقد كشف الشاعر في هذا الجزء عن أثر

هذين الهمين في جسمه، إذ نحل ودق، واشتعل شيب رأسه، وشحب لونه. يقول :

وعلا المشيبُ لداته وعملت له حقب نقطن مريره المقصولا
فكان أعظمه محاجنُ نعية عوج قدمن فقلد أردن نحولا
كحديدة الهندني أمسى جفله خلقا ولم يك في العظام نكولا
تعلو حديدته وتكر لونه عين راته في الشاب صقلا

ويكشف المستوى الثاني بشكل أوضح عن طبيعة هذين الهمين إذ يقول الشاعر :

أبلغ أمير المؤمنين رسالةً تشكو إليك مظلما وعوبلا
من نازح كلث اليك هوومه لو يستطيع إلى اللقاء سيلا
طال القلب والزمان ورايه نحل ويكرة أن يكون كسولا
ضاف الموموم وساده وتجهت ريان يصبح في المنام ثقلا

واعتماداً على ما سبق، يمكن أن يكون الهمان هما : همُ القيلة وما لحق بها من جور وظلم، وهذا الهم حله الراعي لأنه كان يتحدث باسمها، وكان زعيماً لقبيلته إذ ورث الزعامة والسيادة عن والده. وهم ذاتي هو خوفه من نتيجة اللقاء المرتقب، وهذا الإحساس حفزه للقول :

أبلغ أمير المؤمنين رسالةً

وجعله يقول مرة : فلتبن سلمت

إن الراعي كما تكشف القصيدة بمستويها، عاش صراعاً أسلمه لتلك الحال التي تحدث عنها في بداية قصيدته، ومما قوى من الصراع ما عُرف عن الراعي من كرهه لبني أمية وقال فيهم أشعاراً منها :

بني أمية إن الله ملحقكم عما قريب بعثان بن عفان^(١٠)

غير أنه حسم الصراع الذي لفته بقوله :

طرقا فلتك هما هي أقربا

لأن من عادة المضيف أن يكرم ضيفه، فكيف كان كرم الراعي ؟ أما في المستوى الأول، فكان الكرم نياقا قوية سميحة كثيرة مشهورة، أصيلة، وكل هذه الصفات تصب في فناء القوة

والشرف والسؤدد، وهي صفات أحسن بها الزاعي في نفسه يقول : قلنا لواقع كالنفسى وصولاً ثم الحوارك، تناسب شدقما وجدبلا، بنيت مرافقهن فوق مزلة وهكذا.

فماذا قدم الزاعي في المستوى الواضح المكشوف ؟ لقد قدم وثيقة أو رسالة، كما سماها - يشرح فيها في مواجهة مع عبد الملك، موقفه وموقف قبيلته من بني أمية، بتسلسل أقرب إلى أسلوب المحامين، فقد بدأ «مرافقته» بالقسم على قول الحق.

يقول :

إني حلفت على يمين سرّة لا أكذب اليوم الخليفة قـيـلا

ثم دفع التهمة الموجهة إليه، بأنّه مع الفرق الأخرى المشاورة لبني أمية كالزبيريين أو الخوارج، الأمر الذي جرّ عليه وعلى قبيلته كل ما كان. فقد كان الأمويون ينتقمون من القبيلة كلها إذا تبين أن زعيمها أو شاعرها يتعاطف مع فرقة أو أحزاب أخرى، واعتادوا على ماض غير، يرجع إلى يوم مرج راهط عندما وقت قبيلة نمر إلى جانب قيس عيلان ضد الأمويين، صنف الأمويون المحبرين زبيرى الهوى، ولهذا ألحّ الزاعي على رفض هذا «التصنيف السياسي» ومحاولة نحو هذا الماضي، فمرة يمدح بشر بن مروان بقوله :-

فلو كنت من أصحاب مروان إذ دعا
بعذراء يجمت الهدى إذ بدالها
ولكنني غيبت عنهم فلم يطع
رشيد ولم تعصر العشرة غاوريا^(١١)
ومرة أخرى يقول في هذه القصيدة :

ما زرت آل أبي عيب طالعاً
يوما أردت ليحيى تديلاً
ولما أتيت نجدة بن عويمر
أبغى الهدى فيزيدي تظليلاً
ثم يخاطب الزاعي عبد الملك مستخدماً لفظتين هما تأثيرهما الخاص، فكان الزاعي يذكره بمعانيهما، وهما الخلافة، والرحمة، فيقول :

«الخليفة الرحمن»، (البيت ٤٧) ذكر الخليفة (البيت ٥١)، «يدعو أمير المؤمنين» (البيت ٥٧). ويشير الزاعي إلى أنه وفيه مسلمون أحناف يستحقون الرحمة والعدل، ويقومون بالفرائض حق قيام.

يقول :

أخليفة الرّحمن إلّا معشر حنفاء نوجد بكرة وأصيلا
عرب نرى لله في أموالنا حق الزكاة منزلاً تنزيلا
وكلمة «عرب» في البيت الثاني ما هي إلا محاولة حاولها الراعي لتوجيه أنظار عبد الملك
إلى مبدأ طالما عرّف عليه الأمويون وهو «العرب والعروبة».

وبعد دفع التهمة، عرض شكواه ومظلمته باسم القبيلة، وذلك بأسلوب مؤثر، مستخدماً
الصور الواقعية، كشفت السعاة المزورين، المختالين، العتاة، المختلسين لأموال الرعاة، والذين
أهانوا عريف القبيلة. وضربوه ضرباً مبرحاً وأكروهه تحت وطأة التعذيب على كتابة «صك»
كاذب. يقول :

إن السعاة عصوك يوم أمرتهم وأتوا دواهي لو علمت وغولا
كتبوا الذهيم من العداء لمسرف عاد يربذ خيانةً وغلولا
ذخر الخليفة لو أحطت بعلمه لتركت منه طائفاً مفصولا
أخذوا العريف فقطعوا حيزومه بالأصحية قائماً مغلولا

أما لوحة الإبل وارتعاشها في المستوى التعبيري الأول؛ فتقابل في المستوى التعبيري الثاني،
قبيلة الشاعر وأفرادها، قبيل الشاعر قوية حمينة أصيلة، وهي صورة قريبة إلى حد كبير من
قبيلة الشاعر ذات السؤدد والمركز والقوة قبل الحقبة التي ألفت بها. غير أن هذه الإبل تعرضت
لأكثر من اختبار صعب بعدما خطت خطوات ليست بالكثيرة، مما أفقدها القدرة على مواصلة
الرحلة، فقد أُلِّمَ الإعياء بقيادة الركب «المائرة» فأجهدت، ممّا أدى إلى إجهاضها فولدت
«سليلاً» قبل مواعده في العراء، في مهب الريح، حيث البرد وقسوة الحياة، يقول :

يتعنّ ماليرة الدين شلّة ألفت بمنخرق الرياح سليلا
جاءت بهذي رمق لينة أشهر قد مات أو عجب الحياة قليلا

وسبب هذا الضعف ليس الرحلة فقط، بل سوء التغذية التي كانت عليها الإبل، فهي كما
عبر الشاعر :

شهري ربيع ما تذكق لبوهم إلا حوضاً وخمة وذويلا

إن صورة «السليل» الضعيف الهزيل الذي مات أو كاد يموت، تقابل أبناء قبيلة الشاعر الذين يتصورون جوعاً ويموتون من الجوع، يقول الشاعر عنهم :

كُنْياً تَرَكْنَ غَيْبَهُمْ ذَاخِلَةً بعد الغنى وفقيرهم مهزولاً

وصورة «السليل» الذي قُذِفَ في العراء، هي صورة عريف القبيلة أيضاً، الذي ضربه عمال الصدقات، حتى بدا لا يقوى على الحراك، فألقوه في فلاة واسعة بل إن الشاعر استخدم كلمة «عرق» تجرّبه الرياح، وهي الألفاظ التي استخدمها لرسم صورة «السليل» على وجه التحديد. يقول :

أخذوا حمولته فأصبح قاعداً لا يستطيع عن الديار حويلاً
يدعو أمير المؤمنين ودونه «عرق» تجرّ به الرياح ذبولاً

وصورة الإبل التي فقدت صوى الطريق ومعالمها، فلم تجد لها دليلاً إلا نجمين «مرفدين» وهما نجمان لا يعرفان باعتقاد العرب، إن هذه الصورة في المسوى الأول تقابل في المسوى الثاني صورة قبيلة التي تشتت جمعها، وقطعوا القياي «الجماعة» خائفين كأن قوماً يطاردونهم لإدراك ثأر عندهم، وصورة القبيلة هذه معناها أنها انقضت «الرائد» الذي اعتادت العرب أن تتبعه وتسير وراءه لأنه أدرى بمعالم الطرق ومساكنها، إن الرائد في هذه القصيدة الذي يتشوق إليه الشاعر وذكره أكثر من مرة هو «عدل الحليفة» كما قال الشاعر، وهذا مصدره صاوي أيضاً.

● المواصلات ●

- (١) جهرة لشعر العرب، القزحي ج ٢، ص ٩١٩.
- (٢) الشجر والصحيد في الشعر الأثري، شوقي جيف، ص ١٢٨.
- (٣) طبقات شعراء الشعراء، ٥٩١/١.
- (٤) ديوان الزمعي، الجوي، ص ٦٤.
- (٥) قصص الأثري أدبه وصداقه، عزيزة عزّاز، باهي، ص ٤٥٥.
- (٦) حرفة الأدب، السعداني، وإعطاء عبد السلام هارون، ١٤٦/٢.
- (٧) طبقات شعراء الشعراء، ج ١، ص ٥٠٦.
- (٨) تاريخ الشعر العربي، عبد عبد العزيز الكفراوي ج ٢، ص ٣٧٦.
- (٩) ديوان الزمعي، ص ٦٢.
- (١٠) ديوان الزمعي، ص ٢٦٢.
- (١١) ديوان الزمعي، الجوي، ص ٢٨٦.

● معاني الكلمات ●

(٢٥) هو عبد بن الحصيد بن جندل بن قطب بن عبد الله بن الحارث بن ثمر بن عامر : شاعر إسلامي، حاصر القرداق وسوى، وحلّد القادح من طليط، انظر عنه : طبقات شعول الشعراء : (الحقيق محمود شاكر، ج ١، ص ١٠٩) • الشعر والشعراء : لحطّ، أحمد شاكر، (١٩٩٩).

- (١) القاذف : الحبس، مذلي : مريض.
- (٢) ثلثدي : قلبي واضطرب.
- (٣) حبة : طائر، دجبل : يائس.
- (٤) الحماض : الفجور، قلبي : الآيل القهية.
- (٥) شمو : مرثاة، الحوارث : مرثاة حارث وهو أئيل الكائلي، شدم : وجعل : فعلان يعرب بهما التل.
- (٦) حوزية : شديدة النفس، طويت على زواياها : متوحدة، أولي : يعني بلغت السنة الخامسة.
- (٧) مرططين : أكثليين، مرقا : مشاء بسبب صبيته، عيليا : مكانا.
- (٨) حمان : مرثاة حمان وهي البيضاء الكريمة، عرق والشعر : من حلو القرب القيدوا بإيلهما الكريمة، طريش : محليين.
- (٩) الزحى : القاذف أول ما وضع.
- (١٠) الأشاح : مرثاة شح وهو الظهور، القادح : مرثاة قادح وهو الزحل النس.
- (١١) قاذف : مرمية كائيا قاذف نفسها، دقت : متطابقة لحطّ فهي مطقة.
- (١٢) قود : حوّل، توفه : طاردا.
- (١٣) حصص : صحراء أو قلاع، حاصيا : رؤوسها مصولا : مروجاً.
- (١٤) الزيد : الحادي السريع، البعل : نوع من السور.
- (١٥) وجل الحفاد : وقع الصوت، الصبول : التكوّل التي وقع صوبها حوزة.
- (١٦) وحلت : ارتفعت، شادنا : مبلل، القامل : السور التي السريع.
- (١٧) حوزة : مرمية حلة : الحليفة، السبل : الزيد.
- (١٨) القرداق : حمان في السماء.
- (١٩) ثم حن : رد في اليوم الخامس بعد وزودها الله، القنص : الجيد، الجذ : الزر في الوضع الحبيب، قازحه : عاقله، ويل : وضع.
- (٢٠) سدم : مدقق، تعاف : الله القليل، الشاب : الحمر الذي يقوم عليه السبل، دسول : وشعة الجواب.
- (٢١) شبي الحجاز : حلقه الأثوان.
- (٢٢) السبل : القاذف، القهاب : القطن، السبل : بنية الحلف في بطن الياء، غروحي مع غرض وهو حرم الإسل.
- (٢٣) الحنن : قطن، السكهم : أسبنا القم.
- (٢٤) أكوذاها : مرثاة كوز وهو الإسل، الصعب : الضخم، الصدى : الصوت، الجرحان : ألوف الجبل.
- (٢٥) الجبلان : جبال الزاد، جوس : تسع، القلط : الصوت.
- (٢٦) الذبي : القظام، الأزيد : الزحل، حمولا : حاندا.
- (٢٧) حادب السرا : حادب الظهور، لحيل : من حلة الوفاء.
- (٢٨) الصوى : ما حلف وأرفع من الأرض، الوسيعة : القاذف التي تفردها الإيل عن الله، الشدا : ما يناديه.
- (٢٩) وجل وكان : كثر التعم.
- (٣٠) صرم : عريضة الزماع : الجله في الأمر.
- (٣١) دانت : مرثاة داء وهي من داء معد حلب : مرثاة حلة : بنت مروة : حرمه الثبول : القوي الحكم.
- (٣٢) محاس : مرثاة محاس حسا مطقة الزلي : نعا : شيرة.
- (٣٣) انشدي : السبل، جله : حيد، حلقا : يائس.

- (٤١) أبو حبيب : هو عبد الله بن الزبير.
- (٤٢) نجدة بن حبيب : هو نجدة بن عامر بن الحارث.
- (٤٣) الزبائن : التذلل، مدحون : خالد.
- (٤٤) خوار : ثياب وهما ثياب.
- (٤٥) القولي : مفردة داعية القول : التهلكة.
- (٤٦) الدعج : الثمر والقمح.
- (٤٧) الشريف : القيم بأمر القبيلة حوزة : صفوة الأصحاب : السباط مسومة إلى ذي الأصح ملك من ملك حمير.
- (٤٨) أسارت : لبست، واما : قصبة أسطفا : ذكر العلم.
- (٤٩) فتح : السباط شبه أذناب الإبل، جس : نافذة بضيعة : خدم محزون : مقلوع.
- (٥٠) حويلا : لمويلا.
- (٥١) حيث : ما أصبح من الأرض، مرقون : بلاد قرطمة.
- (٥٢) القذعة : الخمار أو القعدة، القليل : فرح حاتم كن على عهد نوح ومات عطشا فبكه الخمار حرا على.
- (٥٣) وقع الزبج : ضرب نخل للأرض، الطلوة : ساحة الدار، أميل : شديد الصوت، سولا : الثلب السريع.
- (٥٤) الأقارب : المحاصر، البهجة : شدة الرغبة في الأكل من اليهم، يهل الدين : حليف العدو، مشكولا : لا يستطيع عدوه.
- (٥٥) الرخل : التوق تحت الدار، قلما : ما ارتفع من الأرض، غزان : جوعان، الترفج : نامت.
- (٥٦) السوم : الإبل الإبل حزين : سرق، قول : مزود.
- (٥٧) الناعون : الزكاة.
- (٥٨) يمدون : يسوقون : الخطاب : الإبل القريبة لشرتها : أسيد الزميل : التلعب.
- (٥٩) نقي : حر، القوق : التضمير، الشكر : صغار الشعر، لشون : القلقوع بالشعل.
- (٦٠) دويلا : ثياب اليابس لا تلتصق فيه.
- (٦١) الشنار : القوق الموصل، قبل : الصغر من الإبل.
- (٦٢) القلعة : الرحلة القلص : مفردة قريضة وهو كى ما فرض عليه الزكاة الشريف : أرض قبيلة الزبي.
- (٦٣) بكت : حبيوت، دس : مفردة دسل وهو الدار.
- (٦٤) الشان والزبائن : التذلل، الطون : الحكيم القليل.
- (٦٥) الشكون : الشبه وللش.
- (٦٦) عدايا : عدايا العرب والمغرب.
- (٦٧) العسر : قليل الصلابة والحلوة.

● المراجع ●

- (١) تاريخ الشعر العربي، محمد عبد الوهاب الكرمي، دار البعثة مصر، ط ١، ١٩٦٧م.
- (٢) الشعر والمجند في الشعر الأندلسي، شوقي حبيب، ط ٢، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥م.
- (٣) جهرة شعراء العرب، أبو زيد القرشي، تحقيق محمد علي الغامدي، السعودية طبعة المحدث والفرقة والشعر، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.
- (٤) حرة الأندلس، البغدادي، ط ١، مصر، مطبعة الزكية.
- (٥) ديوان الزبيدي، محمد وحفلة وابوت قابوت، بيروت، ١٩٦١-١٩٦٠م.
- (٦) طبقات شعراء الأندلس، ابن سلام الجسسي، تحقيق محمود شاكر، والمعارف مطبعة الدار، ١٩٦٤م.
- (٧) الشعر الأندلسي، أحمد وسفارة، غزوة فزان، ط ١، بيروت، دار الانتشار، ط ١، ١٩٨١م.